كل اسبوع من السعودية

عبد الله جفري

عن الشعراء سألوني ..

■ أنتخب فرحي .. في مناسبات الحزن !!

● ● إني أستأذن حينما أتأهب ، فأطرح هذا السؤال :

- هل أصبح إدراك الإنسان للمفاهيم ، وللفكر ، وللفن ، وللارتقاء الحسي .. إدراكا متكفئا .. مصدوما بالمتغيرات المسلطة على رؤية الإنسان ووعيه وشجونه ؟!

ما هو الفارق اليوم بين داخل الساحة وخارجها ؟!

إنني أتلفت في كل الجهات .. إنسانا منتميا إلى هذا العصر بمشاكله .. بمتناقضاته .. بشروره .. بأنينه وضحكاته . اليوم يبدو الإنسان محكوما بالتلفت .. لأنه مرهون بالأصوات المفاجئة من خارجه ومن أعماقه أيضا ، ومساق بعد ذلك وراء الفجائية ذاتها !

وسأحاول أن أجيب على التساؤل المطروح .. بأن أذن لنفسي بالدخول إلى هذه الساحة !

وسأجيب على سؤال أفترضه منبثقا منكم عن : المقصود بالساحة . فأقول :

● إن كل قضية تهمنا ، أو نتطور فيها هي ساحة يتبارز وسطها نقيضان يتولدان من احتياجاتنا ، ومن مفاهيمنا . وكل رغبة تتبلور في داخلنا هي ساحة ستخلو بعد قليل بقتل تلك الرغبة ، أو قتلها لنا !!

وكل هدف يتضح من طموحنا هو ساحة .. نحن في الغالب لا نملك حدودها ، ولكننا نركض في فراغها حتى الإعياء ، وحتى الموت !

نحن رهائن « ساحة » ننزف فوقها العمر ، ونقطر الشجن .. نتباغض ونتحاب .. نحارب ونموت .. نقتل وننتصر ، ونضيع . لكن ثمن هذه الصراعات ، وهذه الأهداف ، وهذه الرغائب أن تكون لها جميعا « قيم » ومضامين لحياة كريمة ، ومفاهيم لتشييد مجتمع راق وحضاري !

حينما ينكفئ الإدراك يصبح الحظ أعمى ! ..

وهذا قول أشتمه من الترسبات الموروثة من أجيال مضت .. رغم اقتناعي التام أن الجهد لا يخضع للحظ ، وأن الاجتهاد لا يتحول حظا ، وإنما هو متأرجح بين الخطأ والصواب ..

● الشاعر السوري نزار قباني

فالإنسان - إذن - إما مخطئ ، وإما مصيب كما تقول القاعدة القديمة . ولكن الإنسان لن يكون محظوظا ، أو سيئ الحظ !

بعد ذلك .. فمن الصعب أن نسلم وعينا لانكفاء الإدراك .. فرغم أن العالم يضم أمما قطعت شوطا باهراً وبعيداً على درب الحضارة .. فإنها أمم ضعيفة أمام متغيراتها المتصادمة .. لكنها مضطربة بفعل انكفاء إدراكها لمصالح الإنسان المشتركة .. لأنها تنحصر في مصالحها الخاصة ، أو في همومها الكثيفة !

لهذه الأسباب تنقرض حضارات ، وتتفجر حضارات ..

● إن « شبنجلر » يقول : إن الانسان المليء بالشجون .. لا بد أن يعرف أن ما يمتلئ به ليست شجونه وإنما هي شجون الآخرين التي يعاني هو منها !!

فأنت تبكي إذا فقدت شيئا يخصك ، ولكنك تبكي أكثر إذا فقدت إنسانا بلغت غلاوته في نفسك العمق ، أو إذا هجرك من أحببت !

وأنت تتنازل لغيرك عن أشياء كثيرة ، ولكنك لن تتنازل من أجل نفسك عن أشياء تفرك لأنك تعتقد أنك تزاحم بها الآخرين .. فالآخرون هم شجونك وهمومك ودموعك وابتساماتك ، والشاعر يفعل ذلك أيضا بدون أن يدري . فالخنساء تنازلت عن شبابها وأنوثتها من أجل أخيها « صخر »

● الروائي الأمريكي أرنست هيمنجواي

أو بسبب حزنها عليه ، ولكنها لم تتنازل عن حزنها ولوعتها على « صخر » من أجل أنوثتها وشبابها !

وهذه النظرة قد تبدو متأرجحة إذا انطلق جدل لمناقشتها ، وإذا تركز الجدل حول رفض التنازل عن أشيائنا الحميمة أو الخاصة بنا .. باعتبار أن الإنسان أناني ، ولكن أنانية الإنسان ليست في الغالب إلا من أجل ما يريد وهو يريد لنفسه . ولكن الذي يريده لنفسه يعطيه كل نفسه أو أغلى ما عنده من أجل سبب لا بد أن يكون مرتبطا بإنسان آخر !

● ● هنا .. أقترب من النقطة الأخرى التي تأملت جوانبها ، ولا بد أن تكون مرتبطة بما طرحته من شواهد وحوار . هذه النقطة .. هي مخاض لانطباع تشكل في محتوى الجيل الذي يشهد لنا وعلينا . وهي رؤية محتدة .. لحصيلة عاطفة إنسانية غالبا ما تقبع في غبار قبح ما نرغب ونشتهي ، وهي معاناة ذات حدين .. تقتل القاتل والقتيل ، ويبقى داخل الساحة لا أكثر من أنقاض حضارية ، وتهدمات نفسية نمارسها اليوم وتمارسنا .. كانت مرحلة في حياة الأجيال السابقة ، وأصبحت معاناة للجيل المعاصر !!

وسأستلهم دليلي من عاطفة الإنسان . وقلما يتحدث الإنسان اليوم عن أصدق ما في وجدانه ، وسأستلهمه من وسائل التعبير عن هذه العاطفة وأسأل هنا :

● ما الذي تبقى من عاطفة الإنسان ؟!

الجواب : عندما أراد « همنجواي » أن ينتحر .. لم يقل للعالم : إنني انتحرت لهذا السبب .. لم يعط سببا . ولكنه قبل أن يموت كان يكتب رواية لم تكتمل وتركها عند سطور قال فيها : إذا كان ما تبقى من الحياة هو مزيد من قبح المصالح ومن عاهات الوجدان .. فلا بد أن يكون الموت إجابة رائعة على هذا السخف !

ولكنه قتل نفسه في صمت ، وترك الضجيج لمن تحلقوا حول جثته ، ثم تاجروا بأسرار حياته ، أو بادعاء تلك الأسرار !

والانتحار ليس حلا . ولكنه نتيجة ..

كذلك .. فإن عواطف الناس لم تعد « وجدانا » ، ولكنها أصبحت لا أكثر من مضمون معكر مضطرب للوجدان ، واختلفت تلك المضامين وتلاحت ..

فالعاطفة بأشكالها العديدة الملونة بظروف وضغوط المعايشة .. هي دائمة التلفت .. مساقة وراء الفجائية ذاتها !!

● توينبي مثلا .. المؤرخ الذي لم يكن له دخل بالشعر قال هذه العبارة :

« في شبابي أردت أن أتعلم الرسم . فكانت أولى محاولاتي أنني رسمت سماء زرقاء وغصن شجرة ، وطائرا يحلق في المدى . وقبل عام واحد فقط أردت أن أهرب إلى الرسم ، فكانت آخر محاولاتي أنني رسمت مدنا مشنقة ، ومساحة حمراء تعني اللهب ، ويوما في داخله » !!

وقد أراد المؤرخ أن يقول : لقد تبدلت الحياة . إن المتغيرات هي حصيلة الرغائب المجنونة والمصالح القبيحة ، وهي تعبير عن عصر القلق والخوف والأمراض والمجاعة والاكتشافات الغامضة !!

ثم جاءت عبارة جديدة استوقفتني ، وهي لشاعر عربي معاصر .. قذفها في وجه أحد الصحفيين فقال :

● إنني متوتر ومجنون . لا تسألوني عن شعري فما زلت مبدعا وفنانا .. رافضا ومرفوضا . وأكتب الشعر الجيد ولكنه ليس الشعر الوجداني بل هو الشعر المناضل ، أو الشعر القنبلة . إن هذا هو عصري وعالمي !!

وتجعلني هذه العبارة أنكفئ ولا أرتد .. أنقلص ولا أتمدد .. تجعلني أنوح ولا أفرح .. تضيق !

ذلك لأنني : أنتخب فرحي في مناسبات الحزن ..

إننى أرشح طموحى لخدمة مصالحى ..

إننى عاطش ومتسلخ .. بل إننى متوحش أرعرع شجونى وأدعها تتصادم !

لقد نال ذلك الشاعر ما استهجنته بنفسية الإنسان المتعب .. المبدد فى أصداء تلك الساحات .. فهل هناك داع للسؤال !!

وهل يصبح الآن من الضرورى انتظار الإجابة ؟!

وأى سؤال .. وأية إجابة ؟!

إننى لا أحاور الفهم ، ولا أترصد الإدراك .. إننى - فقط - أتقصد وتقهرنى ملامح العالم !!.

لست شاعرا ، ولكننى ولدت فى دواعى الشعر !!

كان الشاعر « طربادورا » ينثر أشعاره فى الطرقات على شعر حسناء فتغنى شعره كأنها تفوح زهرا !

وكان الشاعر يدخل مسابقات « البراعة » من أجل الارتفاع بقيمة الكلمة ، فيأخذ جائزة أرجاها .. فكأنه يحول الدنيا إلى نغم لا يضيع !

وليست هذه قيمة الشاعر .. بقدر ما هى تقييم للشاعر ، ولكن المحتوى الوجدانى كان هو القيمة .. فماذا وجدان الإنسان اليوم يفتقد محتواه !

إن العالم يبدو بلا مضمون وجدانى .. العالم يتحول إلى سياسة ، وصراع .. والشعر يحترق فى هذا التحول . فلا بد أن يقترب الشاعر من آلام أمته . وعندما اندلعت حركة المقاومة الفلسطينية انبثق عنها شعراء .. منهم : درويش ، والقاسم ، وكانت لها ولادة أكبر من حجم معطياتها الشعرية أو الفنية ، أو المضمون الوجدانى . وعندما ازدادت دروب « محمود درويش » اضطرابا تحول إلى شىء عادى .. إلى شىء للممارسة كأنه قد تحدد كشىء سياسى ، ولكنه كشاعر ربما كان مبدعا .. إنما هذا الإبداع قد توقف عند محتوى وجدانى محدد !!

● الشاعر السودانى محمد الفيتورى

ومحمد الفيتورى - برغم شاعريته المبدعة - قد تسلق انفعال الوجدان .. بعد أن كان مضمونا فى أذهان وشجون الناس يوم غنى لأفريقيا ، ثم تحول غناؤه سياسيا بألوان متعاقبة فتحدد . ثم توقف عند الصوفية ، أو هو أغرق نفسه فى محتوى وجدانى محصور !!

وجاءت فترة حلت فيها الصحف والمجلات على « نزار قبانى » .. لأنه شاعر يدخل قدما ثم يخرجها ويجرب بالقدم الأخرى .. فهو يحاول أن يفتح طريقا يجسد فوقه زمنا يعترف له غيره ، ولكن هذا الزمن يبحث فى الملامح التى يرسمها « نزار » لأنها ملامح مترددة ، أو لأن تأمله لتلك الملامح بعد رسمها .. لا أكثر من تلفت وتوتر !

وكل هؤلاء توقفوا عن إعطاء الجديد .. عن المضمون المفقود .. توقفوا عن ولادة رؤية جديدة لزمن مأمول . إنهم جديرون بالعذر ولكن المضمون الوجدانى لكل جيل يتجاوز الأعذار .. فإما أن يقوى عليها ، وإما أن تهشمه !!

إن المحتوى العاطفى .. هو الآن لا أكثر من تلفت متوتر .. محكوم بالتغيرات ..

إن الأبعاد الثقافية .. لا تنفصل عن ذلك المحتوى الوجدانى .. لأنها تستنهض رؤية جيل بكامله .. مشروخ ومصطدم دائما !

وكلنا ينتمى إلى هذا الجيل الباحث عن إدراكه بكل الوسائل والتصور أيضا !!

وبعد كل ذلك ..

إننى أدخن عاطفتى لئلا تجمح ..

إننى أعانى من إدراكى ووعيى ، وأنكمش فوق أرصفة الأسئلة العميقة التى لا تلد الإجابات المنتظرة !!

إننى جيل يختبىء فى غبار الحروب ، ويحترق بلهب لعبة القوى العالمية .

إننى شاعر وسمسار .. أنادى على حقوق الإنسانية من داخل محتواى الوجدانى ، وأتهدم !!

لقد بات العشق .. فجائية التصور ..

مثلا : إن الأنثى التى تعشقها .. إما متشائمة منك ، وإما متفائلة بنفسها ، والحدث الذى تنتظره .. إما وعى متصادم ، وإما شجن مكثف غامر !!

وأنت لا تعشق لتروى محتواك الوجدانى ، وإنما لتغرقه !!

إننى إنسان هذا العصر : أتبجس ، وأنهمر .. وتشربنى نفسى !!

■